

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥ - سُورَةُ الْحَجْرِ

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى (١) (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) إلى قوله (مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله ، بأدنى وجوه المؤاخذة ، مع غاية تحصنهم . ففيه غاية تعظيم الرسل والآيات . وهو من أعظم مقاصد القرآن : أفاده المهايى ، وهى مكية وآياتها تسع وتسعون .

(١) [١٥ / الحجر / ٨٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرَّ ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ)

«الر» تقدم الكلام في مثله «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ» الإشارة إلى (الر) لأنه اسم للسورة أى تلك السورة العظيمة آيات الكتاب الكامل وآيات قرآن عظيم الشأن ، مبين للحكم والأحكام ولسبيل الرشد والنعى . من (أبان) المتعدى . أو الظاهر معانيه أو أمر إعجازه ، وكونه آية قاهرة من (أبان) اللازم . أو الإشارة إلى آيات السورة أو إلى جميع آيات القرآن . وتعريف الكتاب للتعظيم والتفخيم ، كتنكير (قرآن) . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

«رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ» . تبشير للنبي ﷺ بظهور دينه . وأنه سوف يأتى أيام يتمنى الكافرون بها ، أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين . لما يرون من إعلاء كلمة الدين وظهوره على رغم الملحدين . لأن من تأخر إسلامه منهم ، وإن ناله من الفضل ما وعد به الحسنى ، ولكن لا يلحق السابقين (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً) ^(١) وفيه تهيئة للنبي ﷺ على الصدع بالدعوة والصبر عليها ، لما أن العاقبة له . وإنما جرى بصيغة التقليل ، جرياً على مذهب العرب في قولهم : لعلك ستندم على فعلك . ترفماً واستغناء عن التصريح بالغرض ، بناءً على ادعاء ظهوره .

(١) [٥٧ / الحديد / ١٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذُرُّهُمُ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« ذُرُّهُمُ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا » أى بدنياهم وتنفيذ شهواتهم « وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ »

أى يشغلهم عن التوبة والتذكر ، أمل استقامة الحال . وأن لا يلقوا إلا خيراً فى المال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى لمن تكون له العقبى .

قال الزمخشريّ : فيه تنبيه .

ثم بين تعالى سر تأخير عذابهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ)

« وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ » أى أجل مقدر ليتأمل فى أسباب

الهلاك ليتخلص عنها ، وذلك بما قام من الحجّة عليها ، بتقدم الإنذار وتكرّره على سمعهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ)

« مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى لا تهلك قبله « وَمَا يَسْتَخِرُونَ » أى عنه ،

للزوم الحجّة وارتفاع الأعدار . ثم أخبر تعالى عن عتوّهم فى كفرهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

« وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » أى يا أيها المدعى ذلك !

إنك لمجنون فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا . أو فى دعواك تنزيل الذكر .

أو نادوه بذلك استهزاء وتهكماً . أو هو من كلامه تعالى تبرئة له عما نسبوه إليه من أول الأمر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَأِكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[٨] (مَا نُنزِّلُ الْمَلَأِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ)

« لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَأِكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » أى هَلَّا تَأْتِينَا بِالْمَلَأِكَةِ يشهدون بصدقك ويمضدونك على إنذارك كقولهم ^(١) : (لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا) . وقول فرعون ^(٢) : (فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِينَ) .

ثم أشار إلى جواب مقالهم ، وردّ مقترحهم بقوله تعالى : « مَا نُنزِّلُ الْمَلَأِكَةَ » أى عليهم فيأتونهم ويشاهدونهم « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى الحكمة التى جرت بها السنة الإلهية ، وهو العذاب « وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ » أى مؤخرين . كقوله تعالى ^(٣) : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَأِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَأِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍَ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) .

ثم أشار إلى ردّ إنكارهم التنزيل مع تسليمة وبشارة عظيمة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ وَّ لِحَفِظُونَ)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ وَّ لِحَفِظُونَ » أى من كل من بغي له كيداً . فلا يزال نور ذكره يسرى ، وبجر هدهاء يجرى ، وظلال حقيقته فى علومه تمتد على الآفاق ،

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٣] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٢١ و ٢٢] .

ودعائم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق ، رغما عن كيد الكائدين ، وإفساد المفسدين^(١)
(يُرِيدُونَ لِئَلَّا يُرْسِلُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)
وفي إيراد الجملة الثانية اسميةً ، دلالة على دوام الحفظ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ)

[١١] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا » أى رسلاً « مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ » أى فرقهم وطوائفهم .

جمع (شيعَة) وهى الفرقة المتفقة على مذهب وطريقة . و (الأولين) نعت لمخدوف . أى الأمم . أو الكلام من إضافة الصفة للموصوف . « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أى كما يفعله هؤلاء المشركون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[١٣] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ) وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

« كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ » أى الذكر المنزل « فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين .

وقوله : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالذكر . حال من ضمير (نسلكه) أى مكذباً مستهزأً به غير مقبول .

قال الزخشرى : كما لو أنزلت بليث حاجة فلم يجيبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللاثم .

تعنى مثل هذا الإزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية . وقيل الجملة بيان لما قبلها . وجوز فى ضمير (نسلكه) أن يعود إلى الاستهزاء والتكذيب المعلوم . وقوله تعالى :

(١) [٦١ / الصف / ٨] .

« وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » استئناف جيء به تكلمة للتسليمية ، وتصريحاً بالوعيد والتهديد . أى قد مضت السنة فيهم من هلاكهم . وزهوق باطلهم ، ونصر الرسل ، وغلبة جنود المؤمنين عليهم ، واستعمارهم ديارهم . ثم بين تعالى أنهم لا يتركون الاستهزاء بالرسل وإن أتهم الآيات التي تشبه الملجئة لقوة عنادهم وبغيهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ)

[١٥] (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ » أى على هؤلاء المستهزئين « بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا » أى فصاروا طول نهارهم « فِيهِ يَعْرُجُونَ » أى يصعدون مستوضحين لما يرونه فيها من العجائب « لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا » أى حيرت أوحبست من الإبصار، ومازراه شىء نتخيله لاحقيقة له « بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

قال الناصر فى (الاتصاف) : المراد ، والله أعلم ، معنى من الآيتين ، إقامة الحججة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن فى قلوبهم وأدخله فى سويدائها . كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين . فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء . كلٌّ على علمٍ وفهمٍ^(١) (لَيْهَلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن . فأعلمهم الله تعالى من الآن ، وهم فى مهلة وإمكان ، أنهم ما كفروا إلا على علم . معاندين باغين غير معذورين ، والله أعلم . ولذلك عقبه تعالى بقوله (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ) الآية . أى هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه وولج ذلك فى قلوبهم ووقر ، ولكنهم قوم سجيئتهم العناد وسيئتهم اللدد، حتى لو سلك بهم

(١) [٨ / الأنفال / ٤٢] .

أوضح السبيل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يُفتح لهم باب في السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منها نهاراً .

وإلى ذلك الإشارة بقوله (فَظَلُّوا) لأن الظلول إنما يكون نهاراً . لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف (إِنَّمَا سُبِّحَتْ أَبْصَارُنَا) وسحرنا محمد . وما هذه إلا خيالات لاحقائق تحتمها . فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب ، من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب وفهم ، كما فهم غيرهم من المصدقين . لأن ذلك كله حاصل لهم . وإنما بهم العناد واللدد والإصرار ، لا غير . والله أعلم .

ثم بنى تعالى دلائل وحدته وعظمته وقدرته الباهرة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

[١٧] (وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)

[١٨] (إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ مُبِينٌ)

« وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا » جمع (برج) يطلق على القصر والحصن وعلى المنازل الاثني عشر التي تنتقل فيها الشمس في ظاهر الرؤية .

وقد فسرت البروج في الآية بالنجوم وبالمنازل المذكورة وبالقصور ، على التشبيه بحصون الأرض وقصورها . فإن النجوم هي كل نخيمة عظيمة « وَزَيَّنَّاهَا » أي السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء المرئية « لِلنَّاظِرِينَ » أي إلى حركاتها وأضوائها . أوللمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدها ووحدانيته « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ » أي اختلس « السَّمْعَ » أي من الملائكة السماوية « فَاتَّبَعَهُ » أي تبعه ولحقه « شِهَابٌ مُبِينٌ » أي لهب محرق ظاهر ، فيرجع أو فيحترق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَالْأَرْضَ مَدَدًا نَهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)

« وَالْأَرْضَ مَدَدًا نَهَا » أى بسطناها « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبالاً ثوابت « وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ » أى وزن بميزان الحكمة ، وقدّر بمقدار تقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان . أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم : كلام موزون .

وقد ذكر الشريف المرتضى في (الدرر)^(١) : أن العرب استعملته بهذا المعنى . كقول عمر

ابن أبي ربيعة .

وَحَدِيثُ أَلَدُهُ هُوَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النَّفُوسُ يُوزَنُ وَزَنَانًا

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقِينَ)

[٢١] (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُ لَهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

« وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ » أى ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرها ، مما تقتضيه ضرورة الحياة « وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقِينَ » أى من الأنعام والدواب وما أشبهها . قال القاضى : وفذلسكة الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين ، مختلفة الأجزاء فى الوضع ، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز أن لا يكون كذلك ، على كمال قدرته وتناهى حكمته والتفرد فى الألوهية والامتنان على العباد ، بما أنعم عليهم فى ذلك ، ليوحدوه ويعبدوه . ثم بالغ فى ذلك وقال : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

(١) انظر أمالى المرتضى (ج ١ ص ١٤ طبعة الحلبيّ) .

والبيت قائله مالك بن أسماء بن خارجة الفزارى . وفيه :

(يفت الناعتون) عوضاً عن (تشتهيه النفوس) .

عِدْنَا خَزَائِنَهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ «أى وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه . شبه إقذاره على كل شيء وإيجاده بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، المدة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجها إلا بقدر معلوم . استعارة تمثيلية . أو شبه مقدراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد . استعارة مكنية . ومعنى (نُنزِّلُهُ) أى نوجهه ونخرجه فى عالم الشهادة . والقدر المعلوم الأجل المعين له ، حسبما تقتضيه الحكمة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ لَوْفِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[٢٣] (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ » أى تلقح السحاب أى تجعلها حوامل للماء . وذلك أن السحاب بخار بصير ، بإصابتة الهواء البارد ، حوامل للماء . قاله الميهمى . فاللواقح ، عليه ، جمع (مقلح) بحذف الزوائد . أو تلقح الشجر بجرى ماها فيه أو تنميتها ليثمر ويزهو . وجوز كون اللواقح جمع (لاقح) وهى الناقة الحامل . فشبهت الريح التى تجىء بالمرن الممطرة ، بها . كما يشبه ما لا تكون كذلك بـ (العقيم) فىقال : ربح عقيم . « فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ » أى بقادرين على إيجاده وإزاله . و (الخزن) اتخاذ الخزائن ، يستعار للقدرة ، كما مر . أو بحافظين له فى أمكنة بناييعه ، من سهول وجبال وعيون وآبار ، بل هو تعالى وحده الذى حفظه وسلطه بناييع فى الأرض وجعله عذبا ورحم العباد بسقياه « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ » أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقي : وارث ، استعارة من (وارث الميت) لأنه يبقى بعد فناءه . ومنه قوله (١) صلوات الله عليه فى دعائه : واجعله الوارث منا . كذا فى (الكشاف) .

(١) لم أف على هذا الحديث .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

[٢٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ، إِنَّهُ وَحَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » أى من تقدم ولادةً وموتاً . ومن تأخر من الأولين والآخرين . أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد . أو من تقدم فى الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر . لا يخفى علينا شئ من أحوالكم . وهو بيان لكمال علمه ، بعد الاحتجاج على كمال قدرته ؛ فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه . وفى تكرير قوله (وَلَقَدْ عَلَّمْنَا) من كمال التأكيد ما لا يخفى « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » أى الأولين والآخرين على كثرتهم « إِنَّهُ وَحَكِيمٌ » أى يدبر أمرهم فى الحشر على وفق الحكمة « عَلِيمٌ » أى بكل ما فىهم من خفايا الصفات الذميمة^(٢) (سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٧] (وَالْجَبَانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ » يعنى آدم « مِنْ صَلْصَلٍ » أى طين يابس مصوت « مِنْ حَمَإٍ » صفة لصلصال . أى كائن من طين متغير مسود « مَّسْنُونٍ » أى مصور من (سنة الوجه) وهى صورته . أو مصبوب ، من (سن الماء) صببه . أى مفرغ على هيئة الإنسان . كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فليس حتى إذا نقر صلصل . ثم صيره جسداً ولحمًا ونفخ فيه من روحه « وَالْجَبَانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل الإنسان . « مِنْ نَّارِ السَّمُومِ » أى من نار الريح الشديد الحر .

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٩] .

قال أبو السعود: ومساق الآية ، كما هو ، للدلالة على كمال قدرته تعالى ، وبيان بدء خلق الثقلين . فهو التنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر ، وهو قبول المواد للجمع والإحياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٩] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ وَ سَاجِدِينَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ « أَى عدلت خلقته وأكملتها » وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ وَ
سَاجِدِينَ » أَى تحية له وتعظيمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٣١] (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

[٣٢] (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

[٣٣] (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

« فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ
السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن
لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .»

يعنى : وقد خلقتنى من نار فأنا خير منه . كما صرح به فى آية غيرها . وفى تكرير قوله :
(مِن صَلْصَلٍ) الخ تذكير للإنسان بأصله هذا المفضول ، ليكون كالجح من جاح غوايته ،
وشدة تمرده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (قَالَ فَأَخْرُجُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

[٣٥] (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

[٣٦] (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[٣٧] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ)

[٣٨] (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

« قَالَ فَأَخْرُجُ مِنْهَا » أى من زمرة الملائكة المعززين « فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » أى مطرود من كل خير وكرامة . فإن من يطرد يرحم بالحجارة . أو شيطان يرحم بالشهب . وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته . فإن من عارض النص بالقياس فهو رجم ملعون . أفاده أبو السعود .

« وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » أى الجزاء . وهو يوم القيامة « قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » وهو يوم البعث .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ)

[٤١] (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ)

« قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ » أى المعاصي « فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ » أى الذين أخلصتهم لطاعتك وجردتهم بالتوجه إليك . وقرئ بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لك وأعمالهم من غير حظ لغيرك فيها .

« قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ » أى حق نهجه ومراعاته لواعوجاج فيه . وهو أن لاسطان لك على عبادى المخلصين ، إلا الذين يناسبونك فى الغواية والبعد عن صراطى ، فيتبعونك كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)

[٤٣] (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٤] (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ)

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » أى قهر على الإغراء .

« إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » أى المطبوعين على الغواية « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ »

أَجْمَعِينَ » قال المهايى : لأن غوايتهم إنما كانت بترك متابعة الدليل مع متابعة الأهوية

الباطلة ، فغلبتها عليهم « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ » أى الغواة « جُزْءٌ

مَّقْسُومٌ » أى حزب معين مفرز من غيره ، حسبما يقتضيه استعداده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٤٦] (أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ)

[٤٧] (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

[٤٨] (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * أَدْخُلُوهَا » أى يقال لهم ادخلوها « بِسَلَامٍ » أى

سالمين أو مسلما عليكم « ءَامِنِينَ » أى من الآفات والزوال « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ

« غَلَّ » أى حقد كان فى الدنيا، لبعضهم على بعض « إِخْوَانًا » حال من فاعل (أَدْخُلُوهَا) أو الضمير فى (آمَنِينَ) « عَلَى سُرُرٍ » أى مراتب عالية « مُتَقَابِلِينَ » لتساوى درجاتهم وتقارب مراتبهم ، فيتلذذ بعضهم برؤية وجه بعض « مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » لسرمدية مقامهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[٥٠] (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[٥١] (وَنَبِيَّهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)

[٥٢] (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)

« نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحًا « وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » أى لمن لم يتب من كفره . والجملة فذلكه لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له . « وَنَبِيَّهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ » أى عن نَبِيَّهِ . والضيف كالزَّوْر ، يقع على الواحد والجمع .

قال فى الكشاف : عطف (وَنَبِيَّهُمْ) على (نَبِيٌّ عِبَادِي) ليتخذوا ما أحلّ من العذاب بقوم لوط ، عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم « إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ » أى خائفون . وذلك لما رأى أيديهم لاتصل إلى طعامه .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٥٣] (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)
 [٥٤] (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ)
 [٥٥] (قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ)
 [٥٦] (قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

«قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ» * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ
 أى مع مسّ الكبر بأن يولد لى ، والكبر مانع منه « فِيمَ تَبَشِّرُونَ » قال الزخشرى :
 هى (ما) الاستفهامية دخلها معنى التعجب . كأنه قال : فبأى أعجوبة تبشرونى . أو أراد إنكم
 تبشرونى بما هو غير متصور فى العادة . فبأى شىء تبشرون ؟ يعنى لا تبشرونى فى الحقيقة
 بشىء . لأن البشارة بمثل هذا ، بشارة بغير شىء .

«قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ» أى الآيسين من ذلك . « قَالَ
 وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » يعنى لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمة ،
 ولكن استبعاداً له فى العادة التى أجزاها الله تعالى . والتصريح برحمة الله فى أحسن مواقفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥٧] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)
 [٥٨] (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)
 [٥٩] (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ)
 [٦٠] (إِلَّا امْرَأَتَهُ وَقَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)

« قَالَ » أى إبراهيم ، بعد أن ذهب عنه الروح « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم الخطير

الذى لأجله أرسلتم ، سوى البشارة « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى إلى إهلاكهم . يعنون قوم لوط « الْآلَاءِ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا أَمْرًا تُوِّدُ وَ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَيْبِينَ » أى الباقيين مع الكفرة ، تهلك معهم . وإسناد التقدير لهم مجازى من باب قول خواصّ الملك (دبرنا كذا وأمرنا بكذا) وإنما يعنون دبر الملك وأمر . هذا إذا كان (قدرنا) بمعنى أردنا وقضينا . وإن كان بمعنى علمنا ، فلاغرو في علم الملائكة ذلك ، بإخباره تعالى إياهم به .

ومن الناس من يجعل « قدرنا » من كلامه تعالى ، غير محكى عن الملائكة . قال في (الانتصاف) وهو الظاهر لاستغنائها عن التأويل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ)

[٦٢] (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ)

[٦٣] (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٦٤] (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ » أى لا أعرفكم ولا

أدرى من أى الأقسام أنتم وما أقدمكم .

وقال المهامبي : أى يخاف منكم تارة وعليكم أخرى . والظاهر أنه قال ذلك لهم ، بعد معاناته الشدائد من قومه لأجلهم . كما فصل في سورة هود « قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ » أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به ، فيمرون به ، ويكذبونك « وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ » أى اليقين مع هلاكهم « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)

[٦٦] (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْءٍ لَّا مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ)

[٦٧] (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)

« فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » أى فاذهب بهم فى الليل « بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ » أى فى طائفة منه وهى آخره « وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ » أى كن على أثرهم تزدوهم وتسرع بهم وتطلع على حالمهم « وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » أى لينظر ما وراءه ، فىرى من الهول ما لا يطيقه « وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْءٍ لَّا مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » أى يستأصلون عن آخرهم ، حال كونهم داخلين فى الصبح « وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ » أى مدينة لوط ، وهى سدوم « يَسْتَبْشِرُونَ » أى بأضيافه ، طمعاً فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ)

[٦٩] (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ)

[٧٠] (قَالُوا أَوْ لِمَ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[٧١] (قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ)

[٧٢] (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[٧٣] (فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)

[٧٤] (فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلِهَآ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّحِجَرَةً مِّن سَجِيلٍ)

[٧٥] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)

[٧٦] (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ)

[٧٧] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيَّفِي فَلَا تَفْضَحُونِ » أى بالإساءة إليهم . فإن الإساءة إليهم فضيحة للمضيف « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ » أى عن أن تجير أحداً منهم أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم . فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد . وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر والحجر بينهم وبين المتعرض له . فأوعده وقالوا (١) : (لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) أفاده الرخشري .

« قَالَ هَؤُلَاءِ بَقَايَ إِن كُنْتُمْ فَعِلِينَ » تقدم الكلام عليه فى سورة هود ، مفصلاً « لَعَمْرُكَ » قسم بحياة النبي ﷺ ، اعترض به تبعاً من شدة غفلتهم وتكريماً للمخاطب « إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ » أى غفلتهم التى ذهبت معها أحلامهم « يَعْمَهُونَ » أى يترددون فلا يفهمون ما يقال لهم . ولما لم يسمعوا منه ، النصيحة البقية لهم ، أسمعهم الله الصيحة المهلكة لهم . « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ » أى صيحة العذاب « مُشْرِقِينَ » أى داخلين فى وقت شروق الشمس « فَجَعَلْنَا » أى من تلك الصيحة المحركة للأرض « عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا » قال المهايمى لجعلهم الرجال العالين كالنساء السافلات .

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّحِجَرَةً مِّن سَجِيلٍ » أى طين متحجر ، لرجهم على لواطهم « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » أى الناظرين بطريق فى الآيات « وَإِنَّهَا » يعنى

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٦٧] .

مدينة قوم لوط المدمرة « لَيْسَ لِي لَكُمْ مُقِيمٌ » أى ثابت يسلكه الناس ، لم يندرس بعد ، وهم يصرون تلك الآثار .

قال الزخشرى : وهو تنبيه لقريش ، كقوله ^(١) (وَإِنَّكُمْ لَتَعْمُرُونَ عَلَيْهِمُ مَضْجِينَ * وَبِالْأَيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى فى هلاكهم لآبرة لهم .

تنبيهان :

الأول - قال ابن القيم : فى (أقسام القرآن) : أ كثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه نزاعا - أن هذا ، يعنى قوله تعالى (لَعْمُرُك) قسم من الله بحياة رسوله ﷺ . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته . وهذه مزية لاتعرف لغيره . ولم يوفق الزخشرى لذلك . فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط . وإنه من قول الملائكة . فقال : هو على إرادة القول . أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : (لعمرك ...) الآية وليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على أن مافهمه السلف أطيب ، لا أهل التعطيل والاعتزال .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : (لعمرك) أى حياتك . قال : وما أقسم الله تعالى بحياة نبي غيره . والعمر والعمر واحد . إلا أنهم خصوا القسم بالفتوح لإثبات الأخف ، لكثرة دور الحلف على ألسنتهم . وأيضا فإن العمر حياة مخصوصة . فهو عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به ، لمزيتة على كل عمر من أعمار بنى آدم . ولا ريب أن عمره وحياته من أعظم النعم والآيات . فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات . ثم

(١) [٣٧ / الصافات / ١٣٧ و ١٣٨] .

قال ابن القيم : وإنما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرية ، لأن للعشق سكرة مثل سكرة الحجر كما قال القائل :

سُكْرَانِ: سُكْرٌ هَوَىٰ وَسُكْرٌ مُدَامَةٌ . ومتى إفاقةٌ مَنْ بِهِ سُكْرَانٍ ؟
الثاني - قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْتَوَسَّمِينَ) . قال السيوطي في (الإكمال):
هذه الآية أصل في الفراسة . أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً^(١) : (اتقوا
فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ هذه الآية . وقد كان بمض قضاة المالكية يحكم
بالفراسة في الأحكام ، جريباً على طريق إياس بن معاوية . انتهى .

وقد أجاد الكلام في الفراسة ، الراغب الأصفهاني في كتاب (الذريعة) حيث قال في
الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على
أخلاقه وفضائله وورثته .

وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله . وقد نبه الله تعالى على
صدقها بقوله^(٢) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْتَوَسَّمِينَ) ، وقوله^(٣) (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) .
وقوله^(٤) (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) ولفظها من قولهم (فَرَسَ السَّبْعُ الشَّاةَ) فكانت
الفراسة اختلاس المعارف . وذلك ضربان: ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه،
وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحي . وإياه عنى النبي ﷺ بقوله^(٥) (المؤمن

- (١) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١٥ - سورة الحجر ، ٦ - باب
حدثنا محمد بن إسماعيل . (٢) [١٥ / الحجر / ٧٥] .
(٣) [٢ / البقرة / ٢٧٣] . (٤) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٠] .
(٥) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١٥ - سورة الحجر ، ٦ - باب
حدثنا محمد بن إسماعيل ، عن أبي سعيد الخدري ، من حديث .

ينظر بنور الله) وهو الذى يسمى صاحبه المروء والمحدث . وقال عليه الصلاة والسلام ^(١) (إن يكن فى هذه الأمة محدث ، فهو عمر) .

وقيل فى قوله تعالى ^(٢) : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ) الآية : إنما كان وحيا بإلقائه فى الروح ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل ^(٣) : (نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ) وقد يكون بإلهام فى حال اليقظة وقد يكون فى حال المنام . ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام ^(٤) (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) .

والضرب الثانى من الفراسة يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية . ومن عرف ذلك كان ذافهم ثاقب بالفراسة . وقد عمل فى ذلك كتب . من تتبع الصحيح منها ، أطلع على صدق ما ضمنوه . والفراسة ضرب من الظن . وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب . ومن قوى فيه نور الروح المذكور فى قوله تعالى ^(٥) : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) كان ممن وصفه بقوله ^(٦) (أَمَّن كَانَ عَلَى بَيْتِنَا مِنْ رَبِّهِ يَسْتَلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) وكان ذلك النور شاهداً ، أصاب فيما حكم به . ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام ^(٧) فى التلاعنين (إن أمرهما بين ، لولا حكم الله) .

- (١) أخرجه البخارى فى : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبى حفص القرشى ، المدوى ، رضى الله عنه ، الحديث رقم ١٦٢٨ عن أبى هريرة . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . (٣) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣ و ١٩٤] . (٤) أخرجه البخارى فى : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢ - باب رؤيا الصالحين ، الحديث رقم ٢٥٣٦ ، عن أنس بن مالك . (٥) [١٥ / الحجر / ٢٩] و [٣٨ / ص / ٧٢] . (٦) [١١ / هود / ١٧] . (٧) لعله يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى عن ابن عباس فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٣١ - باب قول النبي ﷺ : لو كنت راجماً بغير بينة ، حديث رقم ٢١٦٣ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)

[٧٩] (فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مَّبِينٍ)

[٨٠] (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ)

[٨١] (وَوَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

«وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ» (إِنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف . أى : وإن الشأن كان أصحاب الأيكة . وهم قوم شعيب عليه السلام . كانوا يسكنون أيكة ، وهي بقعة كثيرة الأشجار ، فظلموا بأنواع من الظلم ، من شركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه . «فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» أى بعذاب الظلة ، وهي سحابة أظلمهم بنار تقاذفت منها ، فأحرقتهم «وَإِنَّهُمَا» يعنى قرى قوم لوط والأيكة «لَبِإِمَامٍ مَّبِينٍ» أى طريق واضح . وقد كانوا قريباً من قوم لوط ، بعدهم فى الزمان ومسامتين لهم فى المكان . ولهذا لما أنذرهم شعيب قال ^(١) (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) .

«وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ» يعنى ثمود ، كذبوا صالحاً عليه السلام . ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام ، فقد كذب الجميع . لاتفاقهم على التوحيد والأصول التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار . و (الحجر) واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه . معروف ، يجتازه ركب الحج الشامى .

«وَوَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» يعنى بالآيات ما دلهم على صدق دعوى نبيهم . كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء . وكانت تسرح فى بلادهم .

(١) [١١ / هود / ٨٩] .

(لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ) (١) فلما عتوا وعقروها ، قال (٢) (تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ)

[٨٣] (فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)

[٨٤] (فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[٨٥] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ

لَأَتِيَةٌ ، فَأُصْفِحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

[٨٦] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

[٨٧] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الثَّمَانِيِ وَأُتْرَءِ انَّ الْعَظِيمِ)

«وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ» أى من حوادث الدهر «فَأَخَذْتَهُمُ

الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ» أى وقت الصباح من اليوم الرابع. وفي سورة الأعراف (٣) (فَأَخَذْتَهُمُ

الرَّجْفَةَ) أى الزلزلة وهى من توابع الصيحة . أو هى مجاز عنها .

«فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم

التي ضنوا بماؤها عن الناقة، حتى عقروها لثلا تضيق عليهم فى المياه، فادفعت عنهم تلك الأموال

لما حاء أمره تعالى «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ» أى لإخلاقاً

متلبساً بالحق والحكمة الثابتة ، التي لاتقبل التغير . وهى الاستدلال بها على الصانع وصفاته

(٢) [١١ / هود / ٦٥] .

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٧٨] .

وأسمائه وأفعاله ليعرفوه فيعبده ، بحيث لا يلائم استمرار الفساد . ولذلك اقتضت الحكمة إرسال الرسل مبشرين ومنذرين . « وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ » أى فيجزى كلاً بما كانوا يعملون « فَأَصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ » أى عاملهم معاملة الصفوح الحكيم ، كقوله (١) « فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » .

وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة . فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله تعالى (٢) « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

« وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » قال الرازى : إنه تعالى لما صبره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل ، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خصه بها . لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه ، سهل عليه الصفح والتجاوز . (والسبع الثانى) هو القرآن كله كما قاله ابن عباس فى رواية طاوس . لقوله تعالى (٣) « كِتَابًا مَّتَشَابِهًا مَّثَانِي » والواو فى قوله : « وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » لعطف الصفة كقول الشاعر (٤) :

إلى الملكِ القرمِ وابنِ الهمامِ
وليثِ الكتبيةِ فى المزدحمِ

و (السبع) يراد بها الكثرة فى الآحاد . كالسبعين فى العشرات . و (الثانى) جمع مثنى بمعنى التثنية أو الثناء . فإنه تكرر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه . أو مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز . أو مثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٨١] . (٣) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٤) انظر معانى القرآن للقراء ، ج ١ ص ١٠٥ .

وانظر تفسير الطبرى ص ١٠٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد روى عن بعض السلف تفسير السبع بالسور الطوال الأول، وهذا لم يقصد به. إلا أن اللفظ الكريم يتناولها، لا أنها هي المعنيّة. كيف لا وهذه السورة مكية وتلك مدنيت؟ كلقول بأنها الفاتحة سواء. وأما حديث^(١) (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته) عند الشيخين ، فعناه أنها من السبع ، لعطف قوله (والقرآن العظيم الذى أوتيته) ولو كان القصر على بابه ، لناقضه المعطوف . لاقتضائه أنها هولا غيره . وبداهة بطلانه لا تخفى .

وسر الإخبار بأنها السبع ، كون الفاتحة مشتملة على مجمل ما فى القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها . كما بينه الإمام مفتى مصر فى (تفسير الفاتحة) فراجعه . هذا ما ظهر لى الآن فى تحقيق الآية .

وللاثرى الواقف مع ظاهر ماصح من الأخبار ، الجازم بأن السبع فى الآية هى الفاتحة لظاهر الحديث - أن يجيب عن القصر بأن المراد بالمعطوف القرآن بمعنى المقروء ، لا بمعنى الكتاب كله . والله أعلم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٨٩] (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

[٩٠] (كَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ الْمُقْتَسِمِينَ)

«لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ» يعنى : قد أوتيت النعمة العظمى ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير، ١ - سورة الفاتحة ، ١ - باب ماجاء

فى فاتحة الكتاب ، حديث ١٩٦١ ، عن أبى سعيد بن العلى .

التي كل نعمة وإن عظمت ، فهي إليها حقيرة . وهي القرآن العظيم . فمليك أن تستغنى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ، من زخارف الدنيا وزينتها ، أصنافاً من الكفار متمنياها . فإنه مستحق بالإضافة إلى ما أوتيته . وفي التعبير عما أوتوه (بالمتع) إنباء عن وشك زوالها عنهم .

« وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أي لعدم إيمانهم ، الرجوّ بسببه تقوى ضعفاء المسلمين بهم « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » أي تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفاءهم . وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء .

« وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » أي المنذر المظهر للعذاب لمن لم يؤمن « كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » أي مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين . أو إنذاراً مثل ما أنزلنا . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح عليه السلام ، الذين تقاسموا بالله لنبيّته وأهله فأخذتهم الصيحة ، كما مر . فلاققسام من (القسم) لامن القسمة . وهذا التأويل اختاره ابن قتيبة .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ)

[٩٢] (فَوَرَبِّكَ لَنَسَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٩٣] (عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ » أي أجزاء جمع (عضة) يعنى كفار مكة . قالوا : سحر . وقالوا : كهانة . وقالوا : أساطير الأولين . وهو مبتدأ خبره « فَوَرَبِّكَ لَنَسَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أي من التقسيم فنجازيهم عليه . وجوز تعلق (كما) بقوله :

(لَنْسَأَلَنَّهُمْ) أى لنسألهم أجمعين مثل ما أنزلنا . فيكون (كما) رأس آية و (المقتسمون) حينئذ ، إما من تقدم ، أو المشركون . ويعنى بالإنزال عليهم إنزال الهداية التي أبوها ، وجوز جعل الموصول مفعولاً أول للندير ، أو لما دلّ عليه من أنذر . أى انذير . أو أنذر المعصين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير ، مثل ما أنزلنا على المقتسمين . وجوز جعل (كما) متعلقاً بقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ) أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب الذين جزءوا القرآن إلى حق وباطل . حيث قالوا : قسم منه حق موافق لما عندنا . وقسم باطل لا يوافقه . أو القرآن هو مقروؤهم . أى قسموا ما قرءوا من كتبهم وحرّفوه . فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٤] (فَأُصَدِّعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

[٩٥] (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)

[٩٦] (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« فَأُصَدِّعُ بِمَا تُؤْمَرُ » أمر من (الصدع) بمعنى الإظهار والجهر ، من (انصداع الفجر) . أو من (صدع الزجاجة) ونحوها وهو تفريق أجزاءها . أى: افرق بين الحق والباطل « وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » أى الذين يرومون صدك عن التبليغ ، فلا تبال بهم « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » أى حفِظْنَاكَ مِنْ شَرِّهِمْ ، فلا ينالك منهم ما يحذر . وهذا ضمان منه تعالى ، له صلوات الله عليه ، لينهض بالصدع نهضةً من لا يهاب ولا يخشى . كما قال تعالى (١): (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) .

(١) [٥ / المائدة / ٦٧] .

« الَّذِينَ يَجْمَعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » وصفهم بذلك، تسليمة له عليه الصلاة والسلام، وتهويناً للخطب عليه ، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى ، التي هي أكبر الكبائر ، التي سيخذلون بسببها . كما قال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة أمرهم . وقد جوزّ في الموصول أن يكون صفة (للمستهزئين) ومنصوباً بإضمار فعل . ومرفوعاً بتقدير (هم) . وفي الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبوداً آخر . وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) عنى به ما عجله من إهلاكهم ، كما روى ابن إسحاق عن عروة : أن عطاء المستهزئين كانوا خمسة نفر . وكانوا ذوى أسنان وشرف في قومهم : من بنى أسد أبوزمعة ، كان النبي ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه . فقال : اللهم ! أعم بصره وأثكله ولده . ومن بنى زهرة الأسود . ومن بنى مخزوم الوليد بن المغيرة . ومن بنى سهم العاص بن وائل . ومن خزاعة الحارث . فلما تآدوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء ، أنزل الله تعالى ^(١) : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) إلى قوله (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) قال ابن إسحاق عن عروة : إن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت . فقام وقام رسول الله إلى جنبه . فر به الأسود فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فأت منه . ومر به الوليد فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله ، كان أصابه قبل ذلك بسنتين . فانتقض به فقتله . ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخص قدمه ، فخرج على حمار يريد الطائف ، فربض على شبرقة فدخلت في أخص قدمه . ومرّ به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله . انتهى .

ومثله ما رواه ابن مسعود ^(٢) : قال : كنا مع رسول الله ﷺ نصلى في ظل الكعبة .

(١) ١٥ / الحجر / ٩٤ . (٢) أخرجه البخارى في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٦٩ -

باب إذا ألقى على ظهر المصلّى قدر أو جيفة ، حديث ١٧٩ .

وأخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، ٣٩ - باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، حديث ١٠٧ (طبعتنا) .

وناس من قريش وأبو جهل قد انحروا جزوراً في ناحية مكة: فبعثوا فجاجاً وبسلاًها وطرحوه بين كتفيه وهو ساجد . فجاجت فاطمة فطرحته عنه . فلما انصرف قال : اللهم ! عليك بقريش وبأبي جهل وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأمّية بن خلف وعتبة بن أبي معيط .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : فلقد رأيتهم قتلي في قلب بدر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)

[٩٨] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ)

[٩٩] (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » لما ذكر تعالى أن قومه يهزأون ويسفهون ، أعلمه بما يعلمه سبحانه منه ، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون . لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضى ذلك . ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن . وذلك بما أمره من التسبيح والتحميد والصلاة . كما قال تعالى ^(١) : (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ -) وقال ^(٢) : (أَلَّا يَذْكُرِ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ) ومعلوم أن في الإقبال على ما ذكر ، استنزال الإمداد الرباني بالنصر والمعونة . لقوله ^(٣) : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) . وقوله ^(٤) : (فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) وقوله ^(٥) : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

(٣) [٢ البقرة / ٤٥] . (٢) [١٣ الرعد / ٢٨] .

(٣) [٢ البقرة / ١٥٣] و [٨ الأنفال / ٤٦] . (٤) [٢ البقرة / ١٥٢] .

(٥) [١٦ النحل / ١٢٨] .

وقد روى في شمائله صلوات الله عليه ؛ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وتأويلاً لما ذكر .

قال أبو السعود : وتحلية الجملة بالتأكييد لإفادة تحقيق ما تضمنته من التسليمة . وفي التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ، والإشعار بعملة الحكم ، أعنى الأمر بالتسبيح والحمد . والمراد من (الساجدين) المصلين . من إطلاق الجزء على الكل . و (اليقين) : الموت . فإنه متيقن بالحق بكل حي مخلوق . وإسناد الإتيان إليه ، للإيدان بأنه متوجه إلى الحي طالب للوصول إليه . والمعنى دُم على العبادة ما دمت حياً . كقوله تعالى في سورة مريم ^(١) (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) .

وقيل : المراد بـ (اليقين) تعذيب هؤلاء وأن ينزل بهم ما وعده . ولا ريب أنه من المتيقن . إلا أن إرادة الموت منه ، أولى . يدل له قوله تعالى إخباراً عن أهل النار : (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيِّوْمَ الدِّينِ * حَتَّى آتَمْنَا الْيَقِينَ) وما في الصحيح ^(٣) عن أم العلاء ، امرأة من الأنصار ؛ أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء : رحمة الله عليك ، أبا السائب ! فشهادتي عليك ، لقد أكرمك الله ! فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فن ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين ، وإنى لأرجو له الخير .

(١) [١٩ / مريم / ٣١] . (٢) [٧٤ / المدثر / ٤٣ - ٤٧] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣ - باب الدخول على الميت بعد الموت

إذا أدرج في كنفه ، الحديث رقم ٦٦٦ (والحديث من أفراد البخاري) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يستدل بهذه الآية السكرية وهى قوله (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ
يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) على أن العبادة، كالصلاة ونحوها، واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً، كما
فى صحيح البخارى^(١) عن عمران بن حصين رضى الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال : صلَّ
قائماً . فإن لم تستطع فقاعداً . فإن لم تستطع فعلى جنب . ويستدل بها على تحطئة من ذهب من
الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة . فتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف
عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل . فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم ، أعلم
الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم . وكانوا ، مع هذا ، أعبد
الناس وأكثرهم مواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة . انتهى .

(١) أخرجه البخارى فى : ١٨ - كتاب تقصير الصلاة ، ١٧ - باب صلاة القاعد ،
حديث رقم ٦١١ (والحديث من أفراد البخارى) .